خالد عايد *

قصة الثائر أبو جلدة:
بطل التاريخ الشعبي بين شطط الروائي وخلل الكتابة التاريخية

حنان بكير. "قصة الثائر أبو جلدة" (رواية).
بيروت: دار نلسن للنشر، ٢٠١٤. ١١٧ صفحة.

كتاب حنان بكير، وبالأحرى موضوع الكتاب بالذات، يطرح مجدداً إشكالية تواجه كتابة التاريخ الفلسطيني (والتاريخ العربي إجمالاً): إشكالية البطل الشعبي في التاريخ، في الإطار الأوسع الذي نسميه "التاريخ الشعبي". كما أن مضمون الكتاب يستوجب النظر في علاقة الكاتب الروائي بالوقائع والشخصيات التاريخية التي يستلهمها في بناء سرده الدرامي، إزاء العُوار الفادح الذي تعانيه الرواية التاريخية السائدة بصورة عامة، وفي شقها الشعبي خاصة.

يقوم كتاب بكير في أساسه على رواية نشرتها في بيروت مجلة "اللطائف العصرية" لصاحبها ومحررها المسؤول أديب يوسف صادر، في عددها الصادر في ٦ أيار / مايو ١٩٣٤، بعنوان: "الرواية التامة: الثائر أبو جلدة".

بعد ٨٠ عاماً، نفضت الكاتبة الفلسطينية المولد، واللبنانية النشأة، والنرويجية الجنسية، الغبار عن المجلة القديمة، وأثبتت في كتاب جديد النص الكامل لتلك الرواية الأصلية، والذي احتل القسط الأعظم من مجموع صفحات كتابها، وكان نصيب قلمها منه ١٥ صفحة فقط.

تقوم الرواية الأصل، كما الرواية بحلّتها الجديدة، على سيرة فلاح شاب حقيقي، شغل دنيا فلسطين وما حولها في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين. كان في نظر حكومة الانتداب البريطانية والحركة الصهيونية وبعض "النخبة" الفلسطينية مجرد مجرم مطلوب للعدالة يقود عصابة من اللصوص وقطّاع الطرق. أمّا في عيون الناس، فكان بطلاً شعبياً يقاتل ـ وعصابته ـ الإنجليز

* كاتب فلسطيني.

والمستوطنين اليهود وعملاءهم، بينما هو يتخفى ويسبح في بحر الفلاحين الفقراء في قرى جبل نابلس.

كانت حكاية أبو جلدة الواقعية والملتبسة مادة خصبة للمخيلة الشعبية التي نسجت منها أسطورته في كثير من الحكايات والأغاني، كما كانت مادة رائجة في التغطية الإعلامية التي حفلت الصحف الفلسطينية بها، ولا سيما خلال سنتَي ١٩٣٣ و١٩٣٤. ولعل مجلة "اللطائف العصرية" حين نشرت القصة آنذاك كانت تحاول الجمع بين الواقع والخيال، بين تمجيد الثائر أبو جلدة وزيادة مبيعات المجلة، وبين الوطنية و"السكوب"!

يعتري هذا الكتاب وما يشبهه من كتابات التباس أدبي جذري يضاهي الالتباس التاريخي. أي جنس من الكتابة هذا؟ هو "رواية" (كما تصنفها الكاتبة).. نعم، لكن الرواية هنا ـ على غير ما عهدنا في الروايات ـ لا تدور حول بطل وهمي من صنع خيال الروائي، ولا هي تتناول شخصية تاريخية حقيقية يستلهمها الكاتب ويعيد صوغها في إطار الشخصية نفسها، وبما لا يسيء إلى أي من الشخصيات والوقائع التاريخية.

بطل الرواية هنا هو، بالأحرى، إنسان حقيقي من لحم ودم: محمد محمود أبو جلدة، من قرية طمّون، الواقعة شرقي شمالي نابلس، فلاح عادي يلجأ إلى الجبال الوعرة متمرداً على حكومة الانتداب، يقود ومعه نائبه وصديقه الحميم الوفي صالح مصطفى الملقب بالعرميط، عصابة من عامة الناس فيهاجم دوريات الإنجليز ومستعمرات اليهود في السهل الساحلي، و"يقشّط" بعض التجار الأغنياء في طريق عودتهم من السوق. وقد انضم إليه بعض الفلاحين الذين فتحوا لعصابته أبواب بيوتهم، ومدّوا أفرادها بالطعام والمعلومات والحماية.

جاء انطلاق عصابة أبو جلدة في سياق فترة حافلة بالتطورات المحورية في النضال الفلسطيني: المقاومة البطولية التي أبداها عرب وادي الحوارث في وجه الاستيلاء على أراضي الوادي لمصلحة المستعمرات الصهيونية، وضد إجلائهم من الوادي، وانتفاضة تشرين الأول / نوفمبر ١٩٣٣ الشاملة، ومشاركة النساء البارزة في الحالتين، وكذلك ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين ووتيرة الاستيطان فيها في إثر صعود النازية في ألمانيا. وقد أسست هذه التطورات، وعلى رأسها حركة أبو جلدة، لانطلاق الموجة الثورية التي تلتها: ثورة القسام، فالثورة الفلسطينية الكبرى.

في ظروف غامضة، وبعد محاولات حثيثة، ألقى الإنجليز القبض على أبو جلدة ورفيقه العرميط في نيسان / أبريل ١٩٣٤، وأودعا السجن (وهناك التقاهما نجاتي صدقي، الشيوعي المسجون هو الآخر على خلفية نشاطه السياسي). وأُعدم أبو جلدة ورفيقه في آب / أغسطس من السنة نفسها.

رواية مجلة "اللطائف العصرية"، المنقولة حرفياً في رواية بكير، تُقحِم في السرد شخصية خيالية تماماً هي الحسناء اليهودية إليكرا كوهين، وتفتري على شخصية أُخرى حقيقية تماماً، العرميط، صديق أبو جلدة المخلص ورفيقه حتى حبل المشنقة. تفبرك الرواية قصة غرام بين أبو جلدة واليهودية الحسناء إليكرا كوهين المكلفة من البوليس بالإيقاع به، كما توقع الرواية العرميط في حب إليكرا، وتوقع الغيرة في قلبه من رفيقه أبو جلده، فيشي به ويسلّمه إلى البوليس (و"تتهم" الرواية أشخاصاً حقيقيين آخرين، سليم العديلي مثلاً، بالضلوع في مؤامرة الإيقاع بأبو جلدة، مع أن البحث التاريخي قد يثبت غير ذلك).

قد يشفع لرواية "اللطائف" أنها أقحمت شخصية إليكرا كوهين من باب التشويق المنزّه عن الغرض السياسي في ذلك الحين. كما قد يشفع للرواية الافتراء على العرميط أنها كُتبت فور إلقاء القبض على

أبو جلدة في أواسط نيسان / أبريل ١٩٣٤، وقبل اتضاح العلاقة الحقيقية بين الثائرين الصديقين الحميمين (مع أن الصحف الفلسطينية كانت تعجّ من قبل بأخبارهما معاً وبصورهما معاً)، وكانت تلك الصحف قد أشارت إلى انشقاق فرد آخر من العصابة (اسمه محمود أبو دولة) واتهمته إحداها على الأقل بالتعاون مع البوليس في سبيل إلقاء القبض على أبو جلدة، بمشاركة ثلاثة أشخاص من قرية كفر قلّيل: يوسف الكني، وجبر(؟) أحمد، ومحمد اليوسف (بالمناسبة، راسلني بعض أحفاد أبو دولة بشأن ما اعتبروه براءة جدّهم من تهمة التعاون هذه).

وأياً يكن الأمر، فإن قصة غرام إليكرا وخيانة الصديق العرميط شكّلتا ركنين أساسيين من أركان رواية "اللطائف العصرية" الأصلية. ومن دون هذين الركنين، ينهار مبنى الرواية تماماً، وينهار مبرر إعادة إنتاج الرواية في طبعة جديدة، وإن أضيف إليها بعض الصور والتعليق والنيّات الحسنة.

تزعم "اللطائف" أنها كانت تقدم "الرواية التامة" عن "الثائر أبو جلدة"، بينما تشير حنان بكير، بعد نص الرواية، إشارة سريعة إلى براءة العرميط من تهمة الوشاية، وإلى محاكمته وإعدامه إلى جانب أبو جلدة. كما تؤكد بكير في مقدمة روايتها، وبنوع من الاعتذار، أن كتابها ليس "توثيقياً بالمعنى العلمي للتوثيق."

كتاب بكير ليس توثيقياً بأي معنى، ولا حتى "بالمعنى العلمي للتوثيق"، وهو بالتأكيد ليس تخليداً لذكرى أبو جلدة بواسطة الأدب، اعتماداً على رواية "عاصر كاتبها تلك المرحلة." فقد تولى هذه المهمة كتّاب آخرون منذ أمد بعيد: الشاعر الشاب آنذاك سلام يواكيم الراسي، من قرية إبل السقي (مرجعيون) في الجنوب اللبناني، لم ينتظر طويلاً ليكتب قصيدة في رثاء أبو جلدة يصفه فيها بـ "نبي الأمة"، وتحمل عنوان "وهل من نبي في فلسطين يَسلمُ؟" وتخلّد أبو جلدة والعرميط في أغاني الأعراس والدلعونا والحكايات الشعبية، وتحدث عنهما، وإن في نصف صفحة، نجاتي صدقي في كتاب مذكراته الصادر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية. وقبل ثمانية أعوام، نشر الشاعر هارون هاشم رشيد حكاية "أبو جلدة والعرميط ـ يا ما كسروا برانيط"، وهي "حكاية حقيقية من بطولات المقاومة الشعبية الفلسطينية"، مستمدة من التراث الشعبي.

بعد هذا كله، ما الذي يبقى من أهداف كتاب حنان بكير في "إبراز شخصية فولكلورية فلسطينية مناضلة، ووضع سيرتها في يد الناشئة من شعبنا الفلسطيني والعربي"؟ ما جدوى إعادة نشر رواية تتناقض حبكتها الرئيسية مع الوقائع التاريخية في مفصلين رئيسيين على الأقل: شخصية إليكرا كوهين التي لا وجود لها بتاتاً في الواقع (إلاّ ربما بهدف إقحامها قسراً في الواقع السياسي الراهن؟!)، وشخصية العرميط، الثائر الصديق الصدوق الذي تقدمه الرواية على أنه خائن لأبو جلدة ولفلسطين؟

أم إن الكاتبة كانت تعني ما تقول عندما كتبت في خاتمة الكتاب: "ارتاحت نفسي بنبش سيرة هذا البطل، ومعرفة نهايته"؟

علاوة على ذلك، هناك شيء من التنميط و"التغريب" الليبرالي في إصدار هذا الكتاب الذي بين أيدينا، واللذين ظهرا أمامنا في القصة الغرامية بين إليكرا اليهودية و"البطل" الفلسطيني. ويظهر ذلك في مقدمة الكتاب عبر محاولة إقامة الشبه بين أبو جلدة، الشخصية التاريخية الحقيقية، وشخصية روبن هود الأسطورية في الفولكلور الإنجليزي، والتي لا تزال حقيقتها التاريخية موضع جدال بين الباحثين منذ قرون. وخلافاً لما تذهب إليه الكاتبة، بلى، ثمة "ضير" في إضافة "مغامرات" جديدة، من طراز مغامرة البطل الغرامية المذكورة، مع العلم أن هناك "مغامرات" أُخرى أكثر واقعية نسبها

الناس والصحافة آنذاك إلى أبو جلدة وعصابته. وقد يندرج في هذا الإطار من التنميط والتغريب محاولة بعض الكُتّاب إقامة الشبه بين أبو جلدة والعرميط من جهة، ودون كيشوت وشانسو (في الرواية الإسبانية المشهورة) من جهة أُخرى.

البطل الشعبي والتاريخ البديل

قلنا إن موضوع كتاب حنان بكير يطرح مجدداً إشكالية تواجه كتابة التاريخ الفلسطيني خاصة، والعربي عامة: إشكالية البطل الشعبي في التاريخ، في الإطار الأوسع الذي نسميه "التاريخ الشعبي".

على الصعيد العالمي، جرى في أواخر القرن الماضي صوغ مقاربات جديدة لمثل هذه الإشكالية، نذكر منها مفهوم إريك هوبزباوم (Eric Hobsbawm) لـ "الشقي الاجتماعي"، ومنهج "مجموعة دراسات التابع" (Subaltern Studies Group) الهندية.

ابتكر المؤرخ البريطاني الماركسي إريك هوبزباوم مفهوم "الشقي الاجتماعي" (social bandit, or social crime) في كتابه "ثوار بدائيون" (*Primitive Rebels*) الصادر في سنة ١٩٥٩. والكتاب دراسة لأشكال المقاومة الشعبية التي تشتمل على سلوك يتميز بالخروج على القانون. ثم توسّع في هذا الحقل من خلال دراسته التي صدرت بعد ذلك بعشرة أعوام. وبحسب هوبزباوم فإن "الشقاوة الاجتماعية" ظاهرة واسعة الانتشار عرفتها مجتمعات كثيرة طوال التاريخ المكتوب، وبرز فيها الشقي البطل الخارج على السلطة السائدة في أكثر من صورة: "اللص الشريف" الذي يسلب أموال الأثرياء ويوزعها على الفقراء؛ "المنتقم" الذي تكون أفعاله العنيفة مثالاً يمكن للفقراء المضطهدين أن يحذوا حذوه؛ "المقاوم المسلح" الذي يواجه السلطة المركزية بصورة مباشرة. ومع أن الأشقياء كانوا مجرمين في عيون النخب، إلاّ إنهم كانوا يحظون بالإعجاب والاحترام من الفلاحين المضطهدين. ومن شأن العلاقة الوثيقة بين الأشقياء وجمهرة الفلاحين أن تفضي إلى تمرد فلاحي أشمل وأعنف.

لعل مقاربة هوبزباوم النظرية هذه تنطبق في المقام الأول على المجتمعات الفلاحية، ولذلك لا نرى تأثيراً ملموساً لها في "ثلاثية" هوبزباوم نفسه، التي كرّسها لدراسة تاريخ أوروبا الرأسمالية والإمبراطورية. وفي أي حال، فإن هذه النظرية تجد سنداً تطبيقياً لها في التاريخ الفعلي لأبو جلدة وسواه من الأبطال الشعبيين في فلسطين. وهي في الوقت نفسه، تصلح إطاراً نظرياً مساعداً في دراسة وتحليل الظاهرة التي يمثلها هؤلاء الأبطال، كما تصلح للتمييز الضروري بين بطل شعبي يمثل حقيقة اجتماعية تاريخية (أبو جلدة، مثلاً)، وشخصية أسطورية من نسج الخيال الشعبي (روبن هود، مثلاً) هي أقرب إلى صورة "المخلّص المنتظر" منها إلى صورة الثائر الواقعي الملهم.

أمّا منهج "مجموعة دراسات التابع"، فأشمل من مقاربة هوبزباوم الخاصة بـ "الشقي الاجتماَعي"، وقد يكون سياقه التاريخي أقرب إلى سياق التاريخ الفلسطيني والعربي، في واقعه الكولونيالي "التابع".

نشأ هذا المنهج مع قيام مجموعة من المؤرخين الهنود، بدءاً من سنة ١٩٨٢، بنشر دراسات في تاريخ الهند الكولونيالي، ولا سيما تاريخ الثورات الفلاحية فيها. وكان من أبرز هؤلاء المؤرخين رانجيت غوها وغياتري سبيفاك (Ranjit Guha and Gayatri Spivak). وقد سعت هذه المجموعة لإعادة كتابة هذا التاريخ "من وجهة النظر المميزة والمنفصلة للجماهير، باستعمال مصادر غير تقليدية أو مهملة مأخوذة من الذاكرة الشعبية والخطاب الشفوي والوثائق الإدارية الكولونيالية التي

لم يجرِ تفحّصها من قبل." وسعت المجموعة لتقديم تاريخ جديد يكون "بديلاً من التاريخ الرسمي الذي يقدمه مؤرخون هنود... يتبنّون صياغات وروايات . والأهم من ذلك كله ـ أيديولوجيا الكتابة التاريخية مأخوذة من تحالفاتهم الطبقية النخبوية مع الحكم البريطاني" (بحسب تعابير إدوارد سعيد في تقديمه لمجموعة مختارة من "دراسات التابع" أعدّها مؤرخون هنود).

وبالانتقال إلى الصعيد الفلسطيني / العربي، فقد أخذ يتكوّن في أواخر القرن الماضي وعيٌ بضرورة كتابة "تاريخ بديل"، تاريخ "من تحت"، بديلاً من تاريخ "من فوق" ، وهو التاريخ النخبوي الرسمي الذي ما انفكّ يسيطر على الكتابة التاريخية طوال عهود، منذ "تاريخ الملوك والرسل" للإمام أبو جعفر الطبري، حتى "مَن هو لرجال فلسطين" في سنة ١٩٤٦، وآخر كتب "الأعلام" ـ وليس كتاب خير الدين الزركلي آخرها. وقد بدأ مثل هذا الوعي بالنشوء على خلفية أزمة المنهج الرسمي السائد في سعيه الذي لا طائل فيه لـ "إنتاج معرفة" جديدة تحفر في طبقات التاريخ إلى ما هو أعمق ممّا وصل إليه حتى الآن . وهي أزمة تعكس الأزمة الأشمل المتمثلة في عجز "النخب" السائدة عن تحقيق أي إنتاج اجتماعي جديد من أي نوع، معرفي أو مادي. لكنه جاء أيضاً على خلفية تزايد بروز الدور الذي تقوم عامة "الجماهير" به على المسرح التاريخي منذ أوائل القرن العشرين.

في التطبيق العملي لهذا الوعي بضرورة كتابة "تاريخ بديل"، جرت منذ أواخر القرن الماضي محاولات بحثية ذات شأن في مجال "التاريخ الشفوي" (oral history)، فقد برز خلال العقود الثلاثة الماضية اهتمام متزايد بهذا "التاريخ" من جانب مؤسسات وأفراد داخل فلسطين وخارجها. وكان بين المؤسسات: جامعة بير زيت؛ جمعية إنعاش الأسرة في البيرة؛ مركز "شمل" في رام الله؛ مركز إحياء التراث العربي في الطيبة؛ مركز المعلومات العربي للفنون الشعبية في بيروت؛ موقع "فلسطين في الذاكرة" في الإنترنت، وسواها كثير من المواقع الخاصة بقرية أو مدينة أو مخيم أو عائلة أو عشيرة. وبرز بين الباحثين: روز ماري صايغ؛ تيد سويدنبرغ؛ سونيا النمر؛ عادل يحيى؛ محمود دَكْوَر في مخيم البرج الشمالي في لبنان، وغيرهم.

لكن على الرغم من ضخامة الجهد المبذول، وحجم "التدوين" المتحقَّق باسم "التاريخ الشفوي"، فإنه لم يرقَ إلى مستوى مقاربة إشكالية البطل الشعبي وسائر مجالات التاريخ الشعبي. فقد غاب عن معظم جامعي / مدوّني الروايات الشفوية، المتكررة والمتعددة من حيث أشخاص الآباء والأجداد، أنها في جوهرها إنما هي رواية واحدة يختلط التاريخ فيها بتصورات التاريخ المعدَّلة بالأيديولوجيا وبالتجربة المعاشة اللاحقة وبثقوب النسيان الإنساني. واعتبر كثيرون أن هذه الروايات، في حد ذاتها، هي المصدر / المرجع البديل الموثوق به للسرد التاريخي الموضوعي. وغصّت الأخبار التاريخية (المستندة إلى الروايات الشفوية بصورة شبه حصرية)، والمدرجة في مواقع الإنترنت خاصة، بالأخطاء والمغالطات وبفبركة سير الأشخاص والعائلات والعشائر وسائر العصبيات. بل إن بعض مؤرخي "النخبة" استعمل أداة التدوين للمقابلات الشخصية سلاحاً لشحذ الرواية النخبوية القديمة، من خلال إجراء مزيد من المقابلات مع شيوخ هذه الرواية بما يتيح المجال لتحديثها وتعزيزها فاستدامتها.

وهكذا، بدلاً من أن يرفد المدوّنون "التاريخ الشعبي" بمادة خام تخضع للنقد والمقابلة، شأنها في ذلك شأن أي مادة تاريخية خام أُخرى، وجدناهم يجرّدون "التاريخ الشعبي" من ترسانة أسلحته الأخرى، متمثلة في جملة الأغاني والأشعار العامية والحكايات الشعبية والآثار المادية، إلى جانب الوثائق والسجلات التي احتكرها مؤرخو "النخبة" الرسميون وتلاعبوا بانتقاء أجزاء منها فإبرازها

أو تزويرها، وإغفال أجزاء أُخرى فطمسها وإعدامها.

لقد ظل البطل الشعبي "أسطورياً" في الذاكرة الشعبية، وبطلاً متخيلاً في السرد الأدبي السائد، ولم يستعد دوره الفعلي في حركة التاريخ، وحقّه المستحق في العدالة التاريخية. كما ظلت ممارسات الإنتاج الاجتماعي (ولا سيما الزراعي) والعادات والطقوس الدينية والأغاني والحكايات والأمثال الشعبية حكراً على الدراسات الأنثروبولوجية والفولكلورية ذات المنظور الساكن، اللاتاريخي، ومثاراً لحنين رومانسي يدعو إلى الرثاء والبكاء على أطلال ماضٍ مضى وانقضى.

كانت الأعوام تمر، والتاريخ الرسمي النخبوي يكاد، بالصمت والطمس والتشويه، يعدم ذكرى أبو جلدة (وأمثاله) بالاغتيال المعنوي التاريخي، من دون محاكمة أو ضجيج، بعد أن حاكمته محكمة كولونيالية، وعُلّق جسده النحيل على خشبة المشنقة البريطانية.

لم يكن أبو جلدة وحيداً في سيرته، ولا في إشكالية صورته، ولا في هذا المصير المأسوي (المأساة في قتل البطل من التاريخ ـ قتله في النص التاريخي أو الأدبي ـ هي المعادل النظري لقتله الفعلي في التاريخ). كان أبو جلدة جزءاً من ظاهرة عرفتها فلسطين الانتدابية، ورمزاً لهذه الظاهرة التي ضمّت العرميط ("الواشي الخائن" بحسب رواية مجلة "اللطائف العصرية" المنشورة نصاً في كتاب حنان بكير)، وأبو كباري ورفيقيه أبو سليقة العقرباوي وأبو السرهد، فضلاً عن جنود مجهولين في عصابة "الكف الأسود" وغيرها. وفي إطار تلك الظاهرة، سيلقى شيئاً من هذا المصير، من الطمس والتشويه، مئاتٌ وربما آلاف من "المتسللين" / الفدائيين الفلسطينيين بعد ١٩٤٨، ممّن شكلوا طلائع الثورة الفلسطينية المعاصرة وكانوا نواتها الصلبة.

وهذه الظاهرة لم تكن بدورها إلاّ جزءاً من ظاهرة أعمق تاريخياً، تعود إلى ما قبل الاستعمار/ الانتداب البريطاني (ربما إلى ثورة المبرقع اليماني في العهد العباسي)، وأوسع جغرافياً تشمل الأقطار العربية الأُخرى (وتشمل أقطاراً في أميركا اللاتينية وسواها). ونذكر من الأبطال الشعبيين العرب، على سبيل المثال لا الحصر: أدهم خنجر، وصادق حمزة الفاعور، وطانيوس شاهين (إذا عدنا إلى القرن التاسع عشر) من لبنان؛ أدهم الشرقاوي من مصر. ولا شك في أن العدد الأكبر من أمثال هؤلاء الأبطال الشعبيين لا يزال طيّ الإغفال، في انتظار إحياء ذكراهم على يد مؤرخين جدد.

ظاهرة البطل الشعبي، برمزها الأبرز أبو جلدة، بما فيها سيرته التاريخية الواقعية، لم تحظَ حتى الآن بالاهتمام الجدير لدى مؤرخي فلسطين. ولا يزال "التاريخ الشعبي" لفلسطين (ولسائر الديار العربية طبعاً) كنزاً دفيناً للمعرفة في انتظار أدوات الحفر المنهجية الكفيلة باستخراجه.

يجوز للروائيين المشتغلين في كتابة الرواية الأدبية، أن يلقوا بقسط من المسؤولية على عاتق المؤرخين المشتغلين في كتابة الرواية التاريخية، بشأن تقصيرهم في توفير الوقائع التاريخية الصلبة. لكن لا يجوز لهم، بأي حال، أن يتنصلوا من المسؤولية كاملة، فيتنكبوا مهمة اختلاق الناقص من تلك الوقائع. فقد كان ثمة أعمال روائية وفنية استخدمت الروايات الشفوية الخام، فأحسنت استعمالها: مزجت شيئاً من هذه الروايات بعناصر أُخرى مستمدة من التاريخ والتجربة الشخصية والخيال والرؤيا الذاتية وصنعة الكتابة / الفن، وانتهت إلى "خلطة سحرية". وهي لم تنتهك التاريخ، بل أقول عكس ذلك تماماً، أضافت إلى التاريخ الشعبي وأثرته. ووجدنا بين الأدباء والفنانين العرب مَن تجاوزوا فعلاً تقصير زملائهم المؤرخين فأجروا بأنفسهم ما يلزم من بحث، وغرفوا من معين التاريخ الشعبي الغزير، وصاغوا رؤياهم الروائية / الفنية في القالب الدرامي الملائم. قصة أبو جلدة نفسه، كما صاغها الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد، مثال لذلك؛ وقصة

أدهم الشرقاوي تناولها فيلم سينمائي مصري (في سنة ١٩٦٤)، علاوة على مسلسلين تلفزيونيين، ربما على نحو لم تبلغه الكتابة التاريخية. كما أن رواية إلياس خوري "باب الشمس"، التي استعملت الروايات الشفوية هي الأُخرى، جعلت من بطلها يونس الأسدي مثلاً ورمزاً لعشق وكفاح جيل من "المتسللين" الفلسطينيين (من أبو صالح الأسدي في الجليل الأعلى، وأبو خالد البحري في الساحل الأوسط، إلى مئات وربما آلاف الفدائيين / الثوار الأوائل عبر كل الحدود) الذين لم ينصفهم المؤرخون بعد.

وإلى أن يفطن المؤرخون إلى واجبهم في مجال التاريخ الشعبي، ينبغي لنا أن نلتمس العذر لكتّاب الرواية الأدبية وعشاقها، وبينهم حنان بكير، على سقطاتهم بنيّة حسنة في خطأ / خطيئة الخفّة في تناول مسائل التاريخ، والإساءة من غير قصد إلى صنّاعه الحقيقيين وإلى أبطاله الشعبيين. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الاقتصاد السياسي لصناعة التقنية العالية في إسرائيل

فضل مصطفى النقيب ومفيد قسوم

٢٠٧ صفحات ١٠ دولارات